الدرس الخامس والعشرون :

خير الدنيا والآخرة

قال رسول الله ﷺ : «**أربع مَنْ أُعطيهنَّ فقد أُوتيَ خيري الدنيا والآخرة : لسانًا ذاكرا ، وقلبًا شاكرًا ، وبدنًا على البلاء صابرًا ، وزوجة صالحةً لا تبغيه خَوْنًا في نفسها وماله**»[1].

من أعظم نعم الله !

أيها الأخوة : هذه نِعَم أربع من أعظم النعم التي يُؤتيها الله الإنسان . . . خير من المال ، وخير من الجاه ، وخير مما يسعى إليه الإنسان ، من الأنعام والحرث والقناطير المُقنطرة من الذهب والفضة . من أوتي هؤلاء الأربع فقد أُوتي خير الدنيا والآخرة .

أول هذه النعم : اللسان الذاكر :

أن يُؤتيك الله سبحانه وتعالى لسانًا يذكره على كل الأحيان ، وفي كل الأحوال ، لا يَفْتُر عن ذكر الله . . . اللسان الرطب بذكر الله عز وجل .

حينما يُشغل الناس بدنياهم ، وحينما تستغرق الناس مصالحهم ، هو يذكر الله عز وجل ، فإنَّ الله سبحانه لم يَرْضَ من عباده أن يذكروه مجرَّد ذكر ، أو ذكر قليل ، وإنما قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤١، ٤٢).

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٧٢١٢) ، وفي الكبير (١٣٤/١١) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٤٢٩) ، عن ابن عباس ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير وفي الأوسط ، ورجال الأوسط رجال الصحيح (٥٠٢/٤) ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : رواه الطبراني في الكبير وفي الأوسط ، وإسناد أحدهما جيد (٢٨/٣) ، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩٩) .

إن المنافقين قد يذكرون الله ، ولكن على قِلة ونُدرة ، كما قال تعالى في وصفهم : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء:١٤٢)، أما المؤمنون فهم دائمو الذكر لله عز وجل ، ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ (آل عمران:١٩١).

إنهم في كل أحوالهم ذاكرون لله ، لا ينسونه في السلم ، ولا في الحرب ، حتى إذا لقي الجيشُ الجيشَ ، والتقى الصفان والتحما ، يذكرون الله ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(الأنفال:٤٥).

وأشد ما يحرصون عليه أن يذكروا الله في مواطن الغفلة ، في الأسواق وغيرها ، فـ« ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارِّين »[١].

لسان ذاكر . . . أي لسان رطب بالذكر ، كما سأل رجل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إنَّ شرائع الإسلام كثُرت عليَّ ، فباب نتمسَّك به جامع : فقال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله »[٢].

ومع هذا ينبغي أن يكون القلب مع اللسان ، وإذا لم يحضر قلبك فبالتعوُّد . إن شاء الله تصل إلى حضور القلب .

---

(١) رواه البزار (١٧٥٩) ، والطبراني في الأوسط (٢٧١)، وفي الكبير (١٦/١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٨/٤)، عن ابن مسعود ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار ورجال الأوسط وثقوا (٨٥/١٠).

(٢) رواه أحمد (١٧٦٨٠)، وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح ، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٥)، وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣) ، وابن أبي شيبة في الدعاء (٣٠٠٦٦) ، وابن حبان في الرقائق (٨١٤) ، وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ، والحاكم في الدعاء والتكبير والتهليل (٤٩٥/١) ، وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى كتاب الجنائز (٣٧١/٣) ، عن عبد الله بن بسر ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٨٧) .

والنعمة الثانية : قلب شاكر :

الذكر والشكر يقترنان دائمًا ، كما في قول الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢)، وفي حديث النبي ﷺ : «اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1].

فالشكر مطلوب ، وأول مراتب الشكر : أن يشعر الإنسان بأن النعم كلها من الله . . . هذا هو اعتراف القلب بأن كل النعم من عند الله ، حتى إن جاءت على يد مخلوق ، فالذي سخره هو الله ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣).

قلب شاكر . . . يعترف بأن الله هو ولي النعم ومُسديها وصاحبها ، وأن كل ما حوله فهو من نعمة الله عز وجل ، وما أعظمها نعم الله علينا . . . كل ما حولنا في خدمتنا ، الله هو الذي سخر هذا .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(إبراهيم:٣٢-٣٤).

وعلى المؤمن أن يكون شاكرًا ، كما كان سليمان حينما حضر عرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ، قال : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠)، إنما يشكر لنفسه ؛ لأنه المستفيد من الشكر .

الشكر يحفظ عليه النعمة ويُقيِّدها ، ويجلب عليه المزيد من هذه النعمة ، كما في الآية الكريمة : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧).

---

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩) ، وقال مخرِّجوه : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة ابن مسلم ، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٢)، والنسائي في السهو (١٣٠٣)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠) ، وقال الأرناؤوط : صحيح ، كلاهما في الصلاة ، والطبراني في الكبير (٦٠/٢٠) ، عن معاذ بن جبل ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٧) .

لسان ذاكر . . . وقلب شاكر .

والنعمة الثالثة : بدن على البلاء صابر[1]:

يتحمَّل المشقَّات ، يتحمَّل الشظف والحرمان في سبيل الله ، يجوع ويعطش لله عز وجل ، يتحمل السفر والتنقُّل مجاهدًا في سبيل الله ، يتحمل الأذى والبلاء لله ... يصبر .

لا يمكن أن ينجح الإنسان في حياته الدنيا والآخرة إلا بالصبر ، يقول المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون .

ولذلك قال النبي ﷺ : «الصبر ضياء»[2]، أي هو الذي يُنير للإنسان الطريق ، وبدون الصبر تُظلم الدنيا في وجهه ، وتضيق عليه الأرض بما رحُبت ، وتضيق عليه نفسه . . . فلا بد أن يصبر .

والصبرُ مفتاحُ ما يُرجَّى ... وكلُّ صعب به يهونُ
فاصبرْ وإن طالتْ الليالي ... فرُبَّما طاوع الحَرُونُ
وربما نيلَ باصطبار ... ما قيل : هيهاتَ لا يكونُ

وقال الآخر [3] :

لا تيأسنَّ وإن طالتْ مطالبةٌ ... إذا استعنتَ بصبرٍ أن ترى فَرَجا
أَخلِقْ بذي الصبرِ أن يحظى بحاجتِهِ ... ومُدمِن القرعِ للأبوابِ أن يَلِجَا

فالصبر نعمة . . . مَن أُوتي الصبر فقد أُوتي نعمة عظيمة ، فهو السيف الذي لا ينبو ، وقال علي بن أبي طالب : الصبر سيف لا ينبو ، ومطية لا تكبو .

---

(١) راجع ما ذكرناه في كتابنا : (الصبر في القرآن) طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة .

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، والنسائي في الزكاة (٢٤٣٧) ، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٢٨٠) ، عن أبي مالك الأشعري .

(٣) من شعر محمد بن بشر .

النعمة الرابعة : الزوجة الصالحة :

ثم النعمة الرابعة . . . زوجة صالحة . . . «لا تبغيه خَوَنًا ـ خيانة ـ في نفسها ولا ماله» ، تصون عرضها ، وتصون مال زوجها .

هذه هي الصالحة القانتة الحافظة للغيب بما حفظ الله ، تسرُّ إذا نُظرتْ ، وتُطيع إذا أُمرتْ ، وتحفظ زوجها في غيبته[1] . . . هذه نعمة من نعم الله عز وجل ، وهي التي يقول فيها النبي ﷺ :«الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة»[2]، جرَّب ذلك النبي ﷺ حينما تزوَّج خديجة رضي الله عنها ، إنه لم يبحث عن المال ، ولم يبحث عن السن ، ولم يبحث عن كذا . . . وإنما بحث عن امرأة . . . امرأة صالحة . . . عن إنسانة .

إنه إنسان يُفتِّش عن إنسان يكتمل فيه معنى الإنسانية ، ولهذا تزوَّجها ولم تكن بكرًا ، وتزوَّجها وهي أكبر منه بخمسة عشر عامًا ، وتزوَّجها وهي ذات أولاد من غيره ، ولكن رأى فيها الصلاح ، رأى فيها الخُلق .

ولا عجب أن كانت قُرة عينه ، وكانت سنده في حياته بعد النبوة ، هي التي وقفت تربُت على كتفه ، وتُطمئن فؤاده ، وتُثبِّت قلبه ، وتقول له : والله لا يُخْزيك الله أبدًا ، إنك لتحمل الكلَّ ، وتصل الرَّحم ، وتُقْري الضيف ، وتُعين على نوائب الدهر[3]. وقد سُمِّي عام موتها عام الحزن ، وظلَّ يذكرها بالخير بعد وفاتها ، حتى غارت منها عائشة رضي الله عنها .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرَّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته». رواه أبو داود في الزكاة (١٦٦٤)، وأبو يعلى (٢٤٩٩) ، والحاكم في النكاح (١٦١/٢) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه ، والبيهقي في الشعب باب الزكاة (٣٣٠٧) ، وفي الكبرى (٨٣/٤) ، كلاهما في الزكاة ، عن ابن عباس ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف (١٠٤/٧) ، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٦٣) .

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح ، عن عبد الله بن عمرو .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦١) ، كما رواه أحمد (١٤٤٨٣) .

هذه هي الزوجة الصَّالحة .

نساء السلف :

إن المرأة الصالحة كنز عظيم ، مَنْ أُوتيه فقد أُوتي نعمة من أعظم نِعَم الدنيا والآخرة .

وذلك لأنها تُعينه على طاعة الله ، تُبعده عن معصية الله ، كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج لكسب أو تجارة : يا أبا فلان ، إياك وكسب الحرام ، فإنا نصبر على الجوع والفقر ، ولا نصبر على حرِّ النار وغضب الجبار[1] .

هذه هي النعمة . . . المرأة الصالحة ، التي تُعين على طاعة الله ، لا تُثبِّطه عن الجهاد ، بل تحثُّه عليه .

إن النساء في أيام السلف كانت المرأة تحضُّ زوجها على أن يخرج للجهاد ، وربما جاءها مَن يقول لها : كيف تركت هذا الرجل يخرج للجهاد؟ وكيف تبقين وحدك؟ ومَن يعولك؟ ومَن يعول أولادك؟

فتقول لهم في ثقة المؤمنة ، وإيمان الواثقة : كُفُّوا أيها الناس ، إنَّ زوجي منذ تزوَّجتُه وعرفتُه ، عرفتُه أكَّالاً . . وما عرفتُه رزاقًا . . . فلئن ذهب الأكَّال لقد بقي الرزاق[2] .

هذه هي النعمة ، ولهذا جعلها النبي ﷺ ، من نِعَم الدنيا والآخرة ، وفي بعض الأحاديث قال : « مَن رزقه الله امرأة صالحة ، فقد أعانه الله على شطر دينه ، فليتَّق الله في الشطر الباقي »[3] .

(١، ٢) إحياء علوم الدين (٢/٥٨) .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩٧٢) ، والحاكم في النكاح (٢/١٦١) ، وصحَّح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب باب تحريم الفروج (٥٤٨٧) ، وقال الألباني في صحيح الترغيب : حسن لغيره (١٩١٦) .

عناصر السعادة :

وفي بعض الأحاديث : «أربع من السعادة . . . ـ وذكر هذه الأربع ـ المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والمركب الهنيء ، والجار الصالح»[1].

فكل هذه من عناصر السعادة التي تُيسِّر للإنسان الحياة الطيبة ، فاحرص ـ أيها المسلم ـ إذا تزوَّجتَ ، أن تتزوَّج امرأة صالحة ، لا تجعل أكبر همَّك البحث عن المال ، ولا البحث عن الجمال ، ولا البحث عن الجاه ، ولا البحث عن النسب ، ابحث أول ما تبحث عن الدين والصلاح . . . وإذا كان معه المال ، أو الجمال ، أو النسب ، فلا بأس بذلك ، لكن عليك بذات الدين ، «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2].

«أربعٌ مَنْ أوتيهن فقد أُوتي خيري الدنيا والآخرة . . . لسانٌ ذاكر . . . وقلبٌ شاكر . . . وبدنٌ على البلاء صابر . . . وزوجة صالحة لا تبغيه خونًا في نفسها وماله».

نسأل الله عزَّ وجل . . أن يجعلنا من ذوي الألسنة الذاكرة ، والقلوب الشاكرة ، والأبدان الصَّابرة ، وأن يرزقنا الأسرة الصالحة . ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤).

* * *

---

(١) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢) ، وقال الأرناؤط : إسناده صحيح على شرط البخاري ، والبيهقي في الشعب باب إكرام الجار (٩٥٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨٧).

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦) ، كما رواه أحمد (٩٥٢١) ، وأبو داود (٢٠٤٧) ، والنسائي (٣٢٣٠) ، وابن ماجه (١٨٥٨) ، ثلاثتهم في النكاح ، عن أبي هريرة .